هل جني الشعر الجاهلى

على الأدب العربى ؟

للأستاذ على النجدى ناصف

المفتش بالمعارف

قرأ الناس فى مجلة الثقافة بضع مقالات للعالم الأديب الأستاذ أحمد أمين ، بعنوان « جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى » . وقد حمل الأستاذ فى هذه المقالات حملة شعواء قاسية على الشعر الجاهلى والمحسنى الظن به ، ودعا فى غير تحرز ولا هوادة إلى نبذ كل أثر من آثاره قد يكون عالقا بأدبنا الحاضر . وهو يرى أن السكوت عن هذا سكوت عن خطأ قديم ، وقع السلف فيه ، ولم يسلم الخلف منه جيلا بعد جيل . بل هو يرى هذا السكوت إذعانا لأسر مهين ، واحتفاظا بقيود ثقال ، ألغت شخصيتنا الأدبية ، ومنعتنا أن نفكر بعقولنا ، ونعبر عن عواطفنا ووجداناتنا ، ونتحدث عن مشاكلنا ، وعن العصر الذى نعيش فيه والبيئة التى تحيط بنا ؛ فظل أدبنا على العهد به قبل النهضة الحاضرة — أقوالا مرددة ، وصوراً معادة مكرورة .

وليس يعنينى فى هذا المقام أن أصف الدهشة التى شملت الناس ، والعجب الذى تولاهم حين قرءوا هذه المقالات ، واطلعوا على مافيها من الآراء والأفكار . وليس يعنينى كذلك أن أبين سبب هذه الدهشة وذلك العجب : أهو شدة الخلاف بين مارأى الناس فى هذه المقالات ، وما اعتادوا أن يروا

فى سائر آثار الأستاذ : من أصالة الرأى ، والتوفيق فى البحث ، والاعتدال فى العرض والتعقيب ، أم هو شيء آخر يخالف ذلك كله ، أو يضاف إليه ؟ وإنما الذى يعنينى أن أتناول هذه الآراء بالنقد ، وأن أرد كل وجه من أوجه الخلاف إلى أصله الذى أراه له أصلا .

وهذا لا يعنى بالبداهة أننى أقدس الأدب العربى ، وأبرئه من كل مأخذ ، وأنزه أصحابه عن المؤاخذة ، كما يذكر الأستاذ عن ناقديه فى إحدى مقالاته ؛ فإنى لأعلم أن هذا الأدب ليس وحيا منزلا ، وأن أصحابه ليسوا أنبياء معصومين. كلا ، ولا ملائكة مقربين . وإنما معناه أن آراء الأستاذ فى هذا الموضوع غير مسلمة ولا متفق عليها .

وأول ما نقف عنده مع الأستاذ فيما ذهب إليه من رأى — هو جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى . فما تكون هذه الجناية ؟ وما مبلغ اتهامه بها من الحق والإنصاف .

هذه الجناية كما يراها الأستاذ — هى أن الشعر الجاهلى طغى على الأدب العربى فى جميع عصوره ، فصبغه بصبغته ، وخلع عليه من سمته ؛ فإذا هو عصرى فى ظاهره ، جاهلى فى حقيقة أمره . وعندى أن الأستاذ لم يتحفظ فى عرض هذه الفكرة ، ولم يحدد معناه منها ؛ فإذا هى فضفاضة مرسلة ، فيها من الإسراف والمبالغة ، وفيها من الشيوع والانطلاق . فالأدب العربى قد تأثر بالشعر الجاهلى فى شتى العصور ، ما فى ذلك شك ولا جدال . لكن هذا التأثر كان طبيعيا ، وكان يختلف قوة وضعفا بحسب الظروف التى لابسته ، والأحداث التى تعرض لها.

فى صدر الإسلام كان الشعر جاهليا فى جملته ، لم يطرأ عليه من ظواهر التغيير إلا القليل ؛ لقرب عهد الناس بالجاهلية ، وبقاء الحياة العامة على العهد بها فى الكثير من مناحيها ، ولا سيما حياة الكافة وسكان القاصية ومن يليهم. أما النثر فكان حظه من التغير أوفر ، وتأثره بالإسلام أوضح ؛ أن كان كتاب الله

نثرا لاشعرا . وحديث رسوله ﷺ أشبه الكلام بكلام الله ، بلاغة منطق ، وروعة بيان .

وفى العصر الأموى انبسطت رقعة الدولة ، وثبتت أصولها ، وعز سلطانها ، وفشا فيها الغنى . وتفرق الناس فى أقطار الأرض ؛ فرأوا حضارات لم يروها ، واطلعوا على عادات وأساليب لاعهد لهم بها ، وخالطوا أجناسا شتى ، فأخذوا عنهم ماأخذوا ، ورفضوا مارفضوا ، مع الاعتزاز بالعصبية العربية ، والاحتفاظ بخصائص العرب الراسخة ، ومزاياها المتوارثة ، فكان هذا العصر حقا عصر التهيؤ للانتقال من طور إلى طور ، عبرت فيه الدولة من طور البداوة أو شبيه بها ، إلى طور الحضارة المؤثلة والملك العريض . وكان الأدب على مثال الحياة الاجتماعية فى ذلك ، كان حدا وسطا بين طرفى القديم والحديث ، أو مجازا عبر عليه الأدب العربى من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة ، كما قال أستاذنا الإسكندرى (رحمه الله) عن شعر بشار بن برد .

وفى العصر العباسى بذخت الحضارة ، واستبحر العمران ، وازدهرت الفلسفة ، وأينعت العلوم والفنون . واعتمد الخلفاء على الأعاجم فى توطيد سلطانهم وتدبير ملكهم ، والقيام على الصغير والكبير من أمورهم ، فاشتدت صولتهم وعظم خطرهم ، وما زال يعظم حتى صاروا آخر الأمر أصحاب الحل والعقد ، وأصبح الخليفة ، لاشأن له ولاسلطان ، وأصبح بقاؤه فى الخلافة رهينا بإرادة المتغلبين إن شاءوا عزلوه ، وإن شاءوا أبقوه . فتمازجت العرب والعجم ، ووهنت العصبية العربية ، وتمزقت الدولة مزقا شتى تكونت منها دويلات متنافسة متقاطعة ، لاتكاد تهدأ الحرب بينها أو تنقطع ، وانقرضت أجيال وخلفتها أجيال ، فتبدلت الحال غير الحال . وتغيرت عادات بعادات ، وحلت أساليب فى الحياة محل أساليب ، فتحول الأدب أيما تحول ، وشمله التغيير من كل جانب ، ولم يبق فيه من آثار الشعر الجاهلى إلا بمقدار مابقى فى القوم من آثار العروبية الأولى ، وسيأتى بيان ذلك فى شىء من الإيضاح والتحديد .

وفى عصر الجمود والتقهقر ركدت الحياة الأدبية أو كادت ، وانصرف الأدباء عن الابتكار والتجديد ، إلى أساليب من الصناعة الفارغة ، والزخارف اللفظية التافهة ، فلم يكن فى أدبهم من صراحة التفكير العميق ، ولا جهد التغلغل والاستيعاب ، ولم يكن فيه من سراوة الطبع السمح والخاطر المطواع ، ولكن كان فيه من عبث المخلين ، وتهافت المقلدين .

ولما جاء عصر النهضة تلفت الأدباء حولهم يبحثون عن مثال يحتذونه ، وفيض يستمدون منه ، فلم يجدوا مثلا أعلى ، ولا فيضا أغزر مددا ، وأعذب وردا من الأدب القديم ، فأقبلوا عليه ينهلون منه ، ويأخذون إخذ أصحابه فى التفكير وطرائق التعبير ، ويمهدون للناس سبيله بالدعاية له ، وإحياء مصادره ، ونفى الشوائب عنه . وأنجح الله مسعاهم ، فحى الأدب القديم ، ولا فى مايستحق من حفاوة وإقبال ، فاصطبغ به أدب النهضة فى مستهل أمره ، ولا يزال متأثرا به إلى اليوم . وأعتقد أن ستبقى الصلة بينهما ممدودة ، مهما تمتد به الأيام ، ويتوارد عليه من أسباب الخلاف ، فكل فرع إلى أصله ينزع ، ولو فى المشابه العامة ، والخصائص النوعية .

يتضح من هذا البيان أن الأدب العربى فى عصوره المختلفة كان يساير حياة الناس ، ويتأثر بما يقع فيها من أحداث ، وما تمر به من أطوار وتقلبات ، وأنه كان مع ذلك موصول الأسباب بالشعر الجاهلى فى جميع العصور ، وإن اختلفت الصلة بينهما بحسب الظروف والملابسات . وما كان الأدب وهو يجرى على هذا السنن حيال الشعر الجاهلى — بدعا فى الطبيعة ، ولا شاذا من شواذها ، ولكنه كان يجرى على نمط مألوف ، يقتضيه التسلسل والتشعب ، وأحسب أنه على اتفاق مع قانون الوراثة فى الأحياء . فلا ندرى إذا كيف يسمى ذلك جناية ، وكيف يستحق الشعر الجاهلى بسببها غضب الأستاذ ونقمته ؟

على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالشعر الجاهلى ولا متصورة عليه .

فما من عصر إلا فيه شيء مما قبله ، وله أثر فيما بعده . ذلك لأن لكل عصر نتاجه الذي يحيا فيه ، وتمتد به الحياة إلى الذي يليه ، على تفاوت في مدى العمر ومبلغ الحياة . وقد يكون في بعض الأحيان إنسانيا خالدا ، يرتفع عن القيود والحدود ، فإذا كانت هذه جناية فهي من آداب العصور السالفة عامة ، على آداب العصور الخالفة عامة كذلك ، وإذا هي جناية مرزعة التبعة ، تشترك فيها الآداب في جميع العصور . فما قصرها إذا على العصر الجاهلي ؟ ألأنه كان أشد العصور تأثيرا ، وأوفرها من هذه (الجناية) نصيبا ؟ إن كان ذلك فدليل الحيوية وشدة الأسر . وتلك إذا مزية تذكر له ، ويحمد بها ، وليست منقصة تغض منه ، ويتهم لأجلها بالجناية .

إنا لنبخس هذا الشعر فضله ، ونزرى بقيمته الفنية الخالدة ، إذا كان كل ماذكر عنه في هذا المقام أنه برىء من تهمة الجناية التي ألصقت به إلصاقا ، من قبيل تسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووصفها بضد ماتستحق من صفات ، ونحس في قرارة أنفسنا أن واجب الإنصاف وعرفان الجميل يقتضينا في غير هوادة أن نشيد بجزيل عائدته وجميل أثره في الأدب وتاريخه ، واللغة ومايتصل بها ويتفرع عنها من العلوم والفنون . فالشعر الجاهلي قد حفظ لنا صورا فنية خالدة ، تمثل بيئة الجاهلية ومايضطرب فيها من أحياء ، ويتراءى من مشاهد الطبيعة وأفاعيل الانسان ، وتمثل حياة الجاهلية وماكانت تجيش به من عواطف ووجدانات ، وتخضع له من تقاليد وعرف ، ويشيع فيها من عادات ، ويقع من أحداث ، ثم هو قد أمد اللغة بثروة ضخمة من المفردات والتراكيب المختلفة تجول في شتى مطالب التعبير ، وتترجم عن ألوان كثيرة من المعاني . وإليه اتجه العلماء وواضعو العلوم اللسانية يستنبطون أصولها ، ويؤثلون قواعدها ويلتمسون لها الشواهد ، ويصححون الأخطاء ، ويستوضحون المستبهم ،

ويحلون المشكل ، فهو قد أدى رسالته فى خدمة اللغة والأدب وما يتصل بهما كأحسن ما يؤديها الشعر ، وعلى وجه لا نكاد نعرف له مثيلا .

أما لو أن الشعراء والأدباء الذين خلفوا شعراء الجاهلية عصرا بعد عصر — نظروا إلى الشعر الجاهلى كما ينظر الأستاذ أحمد أمين إليه ، فأغفلوا أمره . وقطعوا صلتهم به ، لاستغلق أمره على الخالفين ، وصار فى الأذواق بعد حين كلاما مر ذولا ، وفنا مستكرها ، لا يستسيغه إلا خواص الخواص من المنقطعين لدراسة الآثار البالية ، والتنقيب عن العاديات البائدة . لكنهم أبوا لحسن الحظ إلا أن يمضوا على سنتهم القويم ، فإذا الأدب فى جميع العصور امتداد للأدب الجاهلى ، وتفريع منه ، وزيادة عليه ، رعاية لمقتضيات الزمن . ومسايرة له فى أطواره ، وحفاظا على الأصول الأولى أن تنقطع الصلة بها مع الأيام ، فيتناكر الماضى والحاضر ، ولا يتفاهم الأول والآخر .

ويرى الأستاذ الفاضل أن التغيرات التى طرأت على الشعر فى العصر العباسى لا تعد تغيرات ذات بال ؛ لأنها لم تصل إلى الصميم ، بل وقفت عند الحواشى والأطراف ، فلم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الحياة الاجتماعية بالوصف المستفيض والتحليل الدقيق . وهو يعزو هذا القصور فيه إلى طغيان الشعر الجاهلى عليه ، واستبداده به ، يوجهه وجهته ، ويملى عليه إرادته .

ونحن إذ نرجع إلى الشعر العباسى فنبتليه من هذه الناحية — نراه قد أوفى على الغاية المأمولة ، وأدى الرسالة على النحو الذى يريد الأستاذ ، فاستحدث المستطيل والممتد والموشحات فى الأوزان ، وكثر النظم من البحور التى لم تستكثر العرب منها ، كالمضارع ، والمجتث ، والمتدارك ، واستحدث التسميط ، والتخميس ، والازدواج فى القافية وتغيرت الألفاظ والمعانى تغيرا كبيرا ، بما دخل عليه من الرقة ، والعذوبة . والإطلاق ، والتقييد ، وما استجد من الأساليب وطرق الأداء ، وشاع من الزخارف والتأنق وحسن الترتيب وإحكام الصنعة ،

وما اخترع من الأخيلة والتشبيهات ، والتزم من الافتنان فى إزجاء الخواطر وعرض الفكر . أما الموضوعات فالنغير فيها شامل مستفيض ، تناول الحياة من كل ناحية ، ودخل عليها من كل باب : فجد وهزل ، وتقوى وزهد ، وخلاعة ومجون ، وشراب وندمان ، ونساء وغلمان ، وطرد وصيد ، وسياسة وحكم ، ودعاية وأحزاب ، وفلسفة وحكمة ، وديانة ومذاهب ، وقوانين وأنظمة ، وليل ونهار ، وسماء ونجوم ، وشمس وقمر ، وسحاب وأمطار ، وأرض وأجواء ، ومياه ورياض ، وأزهار وثمار ، وطير وحيوان ، وآلات وأدوات ، وسلم وحرب ، وكرّ وفر ، وخوف وأمن ، وغير هذا أو أشباهه مما يطول تعداده ، وتشق الإحاطة به . ولولا مخافة الإطالة وأن كتب الأدب ودواوين الشعراء زاخرة بذلك كله لسقنا له الشواهد ؛ ليستيقن الذين يرتابون ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

ومن آثار هذا العصر الأدبية ما يتسع لبعض مشاكلنا الحاضرة ، ولا يقصر عن الإلمام ببعض مخترعاتنا العتيدة ، كأن أصحابها يوم قالوها فى موضوعاتها كانوا ينظرون بالغيب إلى أشياء لها ونظائر ، ستتمخض عنها العصور المستقبلة .

فهذه سياسة العالم اليوم ، يتنازعها فريقان يختصمان : فريق يتنزى للغزو وبسط السلطان ، كأنه لا يكترث فى سبيل هذه الغاية لما يصيب العالم من خراب وتدمير . وفريق يجنح للسلم ، ولكن فى غير ذلة ولا استخذاء ، ويتخذ الأهبة للطوارىء الفاجئة فى غير اعتداء ولا استفزاز . فهل من الشعراء المعاصرين من لخص هذه السياسة بأصدق وأجمع مما لخصها أبو الطيب المتنبي إذ يقول :

وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه ، وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ، ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الأنـ ـفس سهل فيها ، إذا هو كانا

وهذا ابن هانئ الأندلسى يصف الخيل فى إسراع عدوها ، فكأنما يصف الطائرات فى إسراع طيرانها قال :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها ، لا أنهـا علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهى ظنون

ويصف المتنبى سيرورة شعره ، وشيوع روايته فى الآفاق ، فإذا هو كواصف الإذاعة بالواحى ، تجتاز العامر والغامر ، وتقتحم السهل والحزن ، لا يعوقها عائق ، ولا تحدها حدود . قال :

فشرّق حتى ليس للشرق مشرق وغرّب حتى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصوله جدار معلى ، أو خباء مطنب

وقال :

وعندى لك الشرد السائرا ت ، لا يختصصن من الأرض دارا
قوافٍ إذا سرن عن مقولى وثبن الجبال ، وخضن البحارا

فلا ندرى بعد هذا ما مراد الأستاذ الكبير بقوله : إن التغيرات التى اعترت الشعر العباسى لم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الموضوعات من الصميم ؟ أتراه يقول ما يقول عن تغيرات الموضوعات ؛ لأن الشعراء فى أغلب الأحوال لم ينشئوا فى هذه الفنون الجديدة قصائد خاصة وإنما تصدوا لما تصدوا له منها عرضا فى قصائد المدح وغيره ؟ إن كان هذا هو السبب فليس فيه ما ينتقص الشعر العباسى أو يعيبه ، مادامت الغاية محققة ، والمطلوب مدركا . وما جناية الشعر الجاهلى فى ذلك ، وهو لا يعرف الكثير من موضوعات هذا الشعر ، ولا تعلقت بمعانيها خواطر شعرائه ؟ وإنما وجه الشعراء وجهة الكسب بالشعر ،

وجعل المدح أول مقاصدهم به — ظروف الحياة الاجتماعية نفسها ، ورضا أولى الجاه والثراء عن هذا الضرب من الزلفى ، وتشجيعهم على الافتنان فيه والاستكثار منه ، ببذل الرغائب وإسناء الجائزة .

ويعزو الأستاذ ماينسبه إلى الشعر الجاهلى من التمكن والغلبة إلى دعاية الرواة وأئمة اللغة من أمثال الأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابى .

ولاخلاف أن هؤلاء السادة كانوا بحكم ثقافتهم ، ووحى رسالتهم التى تجردوا لأدائها — يتعصبون للشعر الجاهلى ، ولايحتجون بغيره إلا ماكان من شعر المخضرمين والإسلاميين ولكن أنى لهم تأثير السحر فى إعلاء كلمة الشعر الجاهلى وبسط نفوذه ، وكيف ظهرت على أيديهم المعجزة التى هيأت لهم اجتذاب الناس إلى طريقتهم ، وإغراء الشعراء بترسم خطا سلفهم من الجاهليين فى مذاهب الشعر وموضوعاته ؟ يقول الأستاذ : إنهم كانوا لدى الخلفاء أسمى مكانا وأنفذ رأيا ، وكانوا فى الناس أقوى ناصرا وأكثر شيعة ؛ ثم إنهم مكروا بالناس ، واستغلوا عواطفهم الدينية لبلوغ أربهم ، فوصلوا الشعر الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، وزعموا أنه يعين على تفهم مفرداته ، والكشف عن المكنون من أسراره .

والمعروف أن مكانة الشعراء عند الخلفاء لم تكن أقل من مكانة الرواة ومن إليهم ، إن لم تكن فى بعض الأحوال على الأقل — أرفع شأنا ، وأمنع جانبا ، فإن الشعراء ينتجون وهؤلاء يجمعون ، أوهم فى الواقع رواة منتجون ، ومنهم طائفة لاتقل عن الرواة المنقطعين غزارة رواية ، وتدفق حفظ ، وهم بعد يملكون مالا يملك غيرهم من تأييد السلطان ، ومحاجة الخصوم ، ونشر المزية ، على نمط يكفل لها الذيوع وقوة الأسر ، صنيع الصحف السيارة فى العصر الحاضر أو أشد ، فلو نشبت حرب بين الفريقين لكان النصر فيها للشعراء لامحالة .

وليس أدل على خلوص نية هؤلاء الأئمة ، وانتفاء الهوى عن مذهبهم فى

الاجتماع من أنهم إلا قليلا جدا — لايجيزون الاستشهاد بأحاديث رسول الله على إثبات اللغة والاحتجاج لقواعدها .

روى البغدادى عن أبى حيان فى شرح التسهيل قال : « قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب وما رأيت أحدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . . . وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى . فتجد قصة واحدة قد جرت فى زمانه ﷺ لم تنقل بتلك الألفاظ جميعها نحو ماروى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن . خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فنعلم يقينا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لانجزم بأنه قال بعضها ؛ إذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمراد ، ولم تأت بلفظه . . . الأمر الثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ؛ لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ؛ فوقع اللحن فى كلامهم وهم لايعلمون ، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب »[1] .

وكذلك لم يكن هؤلاء الأئمة خادعين ولامضلين حين ربطوا الأدب الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، بل كانوا برره أتقياء مخلصين ، يقرنون كلام العرب إلى كلام الله ، احتجاجا له ، وتبيينا لمكنون سره ، فيقيس الناس مالايعلمون من كلام العرب ، ويرون عن بينة كيف يكون الكلامان من نوع واحد ، وبلسان واحد ، ثم يختلفان فى المرتبة والمزية جدا ، ويبتعد الفرق بينهما بعد مابين المشرقين ، فيكون أحدهما معجزا غاية الإعجاز ، لاتستطيع الأنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ، ويكون الآخر ممكنا غاية الإمكان ، لايستعصى على علاج الكفاة ومحاولة الأنداد . وفى هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين ، وتمكين

(١) خزانة الأدب : ١ : ٢٤ ، ٢٥

لرسالة النبى وتأييد لحجته الخالدة على هدى وبصيرة .

على أن النواسى وأبا تمام اللذين يضربهما الأستاذ مثلا للشعراء المجددين ، الذين أوذوا فى سبيل التجديد ، بما بخس بعض الأئمة من جهدهم فيه ، وما أثاروا حولهم من دعاية السوء بسببه — لانرى فى أطوار حياتهما ، ولا فى المأثور من أخبارهما أن أحدهما أو كليهما حورف فى حظه ، أو أقصى عن منزلته بسبب التجديد .

فهذا أبو نواس على ماشاع من خلاعته واستهتاره ، بل فسوقه وإرفائه . قد اتصل ببعض الأمراء وعمال الولايات ، ومدح الرشيد ، وانقطع لمدح الأمين ، ونال جوائزهم جميعا . وأقر أئمة اللغة والأدب بفضله ، وأثنوا على عبقريته ونبوغه . قال أحمد بن يوسف الكاتب : «لقد وصف أبو نواس الخمر وصفا لو سمعه الحسنان (الحسن البصرى وابن سيرين) لهاجرا إليها ، واعتكفا عليها» . وقال الجاحظ : «وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد ، والعدة اثنان . بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ، ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن » . وقال المبرد : «ماتعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس» . وروى الثعالبى : «أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود بيت للمحدثين فى المدح قول أبى نواس:

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ماجرحا

وقال أبو عبيدة : «أبو نواس للمحدثين مثل امرىء القيس للمتقدمين . . . بل لقد كان بعض النساك يستنشد شعره ويعجب به . روى أن سفيان بن عيينة قال لرجل من أهل البصرة : أنشدنى لأبى نواسكم ، فأنشده :

ماهوى إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فقال سفيان : آمنت بالذى خلقه . وعجب سفيان أيضا من قوله .

ياقمرا أبصرت فى مأتم ينذب شجوا بين أتراب

يبكى فيلق الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب [١]

واستشهد صاحب الكافية فى باب المبتدأ والخبر بقوله :

غير مأسوف على زمن يتقضى بالهم والحزن [٢]

ولم يكن أبو تمام بأقل حظا من صاحبه ، بل لقد أربى عليه وفاقه. اتصل بالمعتصم ، وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ، والحسن بن وهب وغيرهما ، ورحل إلى كبار العمال بمالكهم ، ومدحهم بالقصائد الخالدة،فقربوه منهم إلى حد الصداقة ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فأقام به أقل من سنتين ، وتوفى [٣].

واستشهد صاحب الكافية فى المبتدأ والخبر أيضا بقوله :

على مثلها من أربع وملاعب تذال مصونات الدموع السوا كب [٤]

واستشهد كذلك صاحب الكشاف على تعدى الفعل أظلم فى قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » — بقوله :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

ثم قال : وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فاجعل مايقوله بمنزلة مايرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك ؛ لوثوقهم براويته وإتقانه [٥] ؟

فأنت ترى أن ماقيل عن أبى نواس وأبى تمام ، مما يرويه الأستاذ عن بعض الأئمة ، ويتأول فيه أذى لهما ، ومثلا من جنايات الشعر الجاهلى على الشعر العربى،

(١) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص ١٦١ — ١٦٣ ، وخزانة الأدب : ١ : ٣١٥

(٢) خزانة الأدب : ١ . ٣١٣

(٣) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص : ١٧٥

(٤) خزانة الأدب . ١ . ٣١٦

(٥) الكشاف : ١ : ٣٥

أو من جنايات الجمود على التجديد — ترى كل ذلك كأنه لم يقل ، ولم يسمع الناس به . وإلا فأين أثره ، وأين موضع الشكاة منه ؟ وقد نال كلا الرجلين على ماأسلفنا — حظه المقسوم فى الحياة ، ونال من أئمة اللغة وأساطين الأدب وأصحاب الجاه والسلطان غاية مايستأهل من الثناء وحسن التقدير ، أداء لحق العبقرية والنبوغ ، كأفضل مايؤدى الحر الكريم المنصف ، برغم ماجناه أبو نواس على الفضيلة والأخلاق ، بما كان يشيع من الفواحش ، ويحرض عليه من المآثم .

والذين قالوا عن أبى تمام : إنه خرج على عمود الشعر ، حين رأوه يحيد عن المألوف فى بعض مذاهبه الشعرية — لم يصدروا فى هذا عن انتقاص لفضله ، أو غض من شأنه ، وإنما كانوا يصدرون عن رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لطريقة تعبيره عن خواطر الشعراء . فهم كانوا يرون أن الشعر لا شأن له بالفلسفة ، ولا ينبغى للشاعر أن يتناول موضوعه على نمط الفيلسوف بل على نمطه المألوف ، القائم على الملاحظة الغريبة ، والفكرة القريبة ، والعاطفة الرقيقة ، والإحساس المتيقظ ، والخيال السرى ؛ لئلا تعتاص معانيه ، ويشيع سوء التأليف فى تراكيبه . ولهذا قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى ؛ إذ كان أكثر منهما التزاما لهذه الطريقة ، وأشد منهما انطباعا عليها ، واقتدارا على الافتنان فيها . ومانرى فيما قالوا تفضيلا للبحترى على صاحبيه ، ولكن نرى فيه وضعا له ولهما بالموضعين اللذين يتفقان مع رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لرسالة الشاعر .

ونحن نعجب كيف يرى الأستاذ أن مجرد وصل الأدب الجاهلى بالتفسير ، وهو بعض ما جاء الإسلام به — كان كافيا لإغراء الناس بهذا الأدب ، واحتفالهم له ، وتهالكهم على دراسته ، وتقديس كل مافيه من أمثال وقصص وأخبار ، ثم لايكون الشعر الإسلامى نفسه أثيرا مقدما ، وهو قد نشأ فى كنف الإسلام ، وترعرع على عينه ، وتأثر به تأثرا بليغا ، ومنه ماقيل دفاعا عن النبى ، وردا على منكرى رسالته ، وتشيعا لآل بيته الكريم ؟

وعندنا أن الشعر الجاهلى إنما فتن الناس به ؛ لأنه أدب الطبع الخالص ، الجارى على سنن الفطر البريئة من تكلف الصناعة ، واضح المذهب ، قريب المتناول ؛ صادق التعبير ، مرسل الصياغة . فهو أقرب إلى الطبع صلة ، وأخف على النفس مئونة ، وألطف إليها مدخلا ، وأجمل منها موقعا . ولبعض هذه الأسباب يلقى الأدب الخفيف من الارتياح والإقبال مالا يلاقى مثله الأدب العويص ، ويخف الناس للتمثيل والخيالة ، ويتثاقلون عن محاضرات العلوم والفنون . ثم إن قدامى المؤلفين فى الأدب قدروا الأدب الجاهلى حق قدره ، فأطروه إطراء جميلا ، ولم يغفلوا الحديث عنه وإيراد الأمثلة منه .

قال الجاحظ : «ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ؛ ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء» (١) . وقال : «وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة . وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر . . . . ونحن (أبقاك الله) إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى

(١) البيان والتبيين : ١ : ٨١

لايستطيع أشعر الناس اليوم ولاأرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير »[1].

أما أيام الجاهلية فمرجع الأمر فى إعظام قدرها ، والإعجاب برجالها ، والارتياح لرواية أنبائها — إلى براعة القصاص فى تفخيم أحداثها بروعة التخيل وجهارة التهويل ، وإلى حسن افتنانهم فى تصوير الأبطال ووصف محامدهم من الشجاعة وبعد الهمة ، والسخاء والنجدة ، والوفاء بالعهد ، وإباء الضيم ، وحماية الذمار ، وهلم جرا . يتخلل هذا وذاك حوار ممتع ، وشعر أخاذ ، كله خفة وظرف ، وحكمة وأدب ، ثم إن أيام الجاهلية كانت أقدم عهداً من أيام الإسلام ، والنفس شيقة إلى البعيد ، حريصة على تعرف أنبائه ، والاحاطة بدخائله ؛ لما فيه من الغرائب والأعاجيب ، ولا كذلك القريب المألوف .

وسبب آخر : أن أيام الجاهلية إنما تنطوى على مفاخر خاصة ، تتفاضل بها القبائل ، وترجح إحداها الأخرى فى السيادة والمجد ؛ إذ كانت القبيلة عندهم هى الوحدة التى ينتسب إليها الفرد ، وتتعاون لخيرها الجماعة ؛ فرواية أيام الجاهلية رواية أخبار مجد تليد ، وإحياء ذكرى سيادة ذاهبة ، للخلف فيها فخر ، وله بها دالة واعتزاز ، أما أيام الاسلام فالفضل فيها لأصحاب دين على أصحاب دين آخر ، لاذكر فيه للقبيلة ، بل لاذكر فيه للوطن والجنس ، فالفخر بها شائع شامل ، والمزية موزعة على التعميم .

يدعو الأستاذ بعد هذا فى غير تحفظ ولاتوقف إلى التحلل من قيود الوزن والقافية كما وضعتها العرب فى الجاهلية . وهى دعوة جريئة ، والمراد بها مع ذلك غير مفهوم . فهل تراه يريد أن يبتدع كل شاعر مايشاء لشعره من الأوزان لايرعى فى ذلك قانونا ، ولا يرجع إلا إلى ذوقه وإرادته ؟ أم هل تراه يبيح ذلك فريقا بعينه من الشعراء ، لايشركهم فيه شريك ، ولا يتطاول إلى مجاراتهم

(١) البيان والتبيين ٣ · ١٣ .

فى ميدانه منازع ؟ إن تكن الأولى فالفوضى لايكاد يعرف معها للشعر نغم، أو تفهم لهم موسيقا، فيضعف تأثيره، ويضطرب رنينه، ولا يستقيم لغير صاحبه أن يقرأه قراءة موزونة، لأن الوزن كما لايخفى - يقتضى تغييرات شتى فى نطق بعض الكلمات بتسهيل المهموز وقطع الموصول، ومد المقصور، وقصر الممدود، وتسكين المتحرك، وصرف الممنوع من الصرف، ونحو ذلك. لأن العربية لغة شكل وإعراب. وهيهات أن يدرك الناس هذه التغيرات على وجهها، مأخوذين باتساق الأنغام، إلا إذا اعتادوا موسيقا الوزن، وطال استماعهم لها، وتمرسهم بجرسها. وكيف يمكن من هذه الفوضى تمرس واعتياد. وإن تكن الأخرى فقد رجعنا إلى مايسميه الأستاذ نوعا من السجن لايليق بأمة راقية أن ترضى به أو تسكت عنه. ثم من هؤلاء الذين يستأثرون بهذا (الامتياز) من الشعراء ؟ ومن الذى يختارهم ؟ وكيف يكون اختيارهم ؟ أتؤلف لذلك حكومة يوكل إليها حق المنح والحرمان. فلا ترد لها إرادة، ولايخالف لها أمر ؟ الحق أن المسألة كما أسلفنا غير مفهومة ولا محدودة.

ثم يقول الأستاذ: إن التزام القافية كما التزمها شعراء الجاهلية قد حرم الشعر العربى الملاحم والقصص الطويلة. ونحن نرى أن خلو الشعر العربى من الملاحم إنما يرجع إلى سبب آخر يتصل بطبيعة العقلية العربية والخيال العربى، لا بالقافية ونظامها الحاضر، ولو أن الشاعر العربى أحس حاجة إلى هذا النوع من القصيد، وتعلقت نفسه بنظمه لاحتال له، وذلل العقبات التى تعترض دونه، أيا كان نوعها. ثم إننا لانرى على الشعر العربى من بأس أن خلا من الملاحم، فلكل أدب طبيعته ومزاياه المستمدة من طبائع أهله وخصائصهم وهيهات أن يجتمع فى أمة واحدة خصائص الناس جميعا، فيجتمع فى أدب واحد خصائص الآداب كافة. أما أن القافية على نظامها الحاضر حرمتنا القصص الطويله الممتعة فغير مسلم، ولانرى أن الشاعر يعيا بهذه القصص مع التزام

القافية إلا إذا كان بكيئا قليل البضاعة ، فج الملكة . أما الشاعر المتمرس الفياض الطبع ، الوافر الذخيرة ، فلا .

وهذا شوقى (رحمه الله) وضع قصصه البارعة شعرا عربيا خالصا ، دون أن يشكو ضيقا ، أو يجد عنتا من القافية . فمن آنس من نفسه المقدرة فليتقدم ، والسبيل أمامه ميسرة ، والمحاولة مجدية . ومن لم يجدها فى النثر له متسع ، وليس بضائره ولا بضائر الأدب واللغة ألا يكون شاعرا .

إن الدعوة إلى نبذ القافية جملة دعوة سخيفة ، وليس لها سند من ذوق أو نظام ؛ لأنها تفضى إلى تعدد مقاطع الأبيات ، واضطراب النمط فى تأليفها . وخلو الشعر منهما يحرمه سمة من أبرع سماته ، ويجعله أشبه بالمنثور ، وأجدر أن يتسمى باسمه ، ويضاف إلى جملته ، بل إنه يجعله مسخا شائها . ولونا من القول مذبذبا ، لا إلى الشعر ولا إلى النثر ؛ فإن من طبيعة النثر الاسترسال والانطلاق ، وهذا مقيد بالوزن فى صياغته ، مطلق من كل قيد فى قوافيه : كالشقة من الديباج أحكمت رقعتها نسجا واتساقا ، وأغفلت طرتها ، فإذا هى ناسلة مفككة .

وينكر الأستاذ أن يقول الناس الشعر فى الموضوعات التى قالت الجاهلية فيها ، مدحا ، ورثاء ، وهجاء . ولا نرى فى ذلك موضعا للإنكار أو الزراية ، فالمدح والرثاء من الموضوعات الانسانية العامة ، لاتختص بعصر دون عصر ، ولا بأمة دون أمة ، فاستحسان المحاسن ، واستقباح المقابح كلاهما طبيعة فى الإنسان ، تدفعه إلى الإعجاب والإطراء ، أو الاشمئزاز والهجاء . والحزن على فقد الأعزة شعور غلاب يهيجه الوفاء والمرحمة ، أو ألم الفوت والحرمان . وقد تترجمه العيون بكاء ، والألسنة رثاء . فلا على الشاعر أن يمدح ويرثى ويهجو ، وأن يقول فى كل فن سبق إليه الأقدمون ، كلما جاشت نفسه بالقول فيه . فما التجديد أن تقول فى الموضوع الجديد وكفى ، ولا الجمود أن تقول كذلك فى

الموضوع القديم وكفى . إنما التجديد فيما تأتى به من المعانى المبتكرة، والتوليدات العجيبة ، وماتقع عليه من الآفاق المجهولة ، التى تزيد فى ثروة الفكر الإنسانى . والجمود أن يلغى المرء عقله ، ويعطل حسه ، ويردد أفكار غيره، وإن كان الموضوع طريفا . والأستاذ حين يطالب إلى الشعراء أن يمسكوا عن القول فيما قال الأقدمون فيه لمجرد أنهم سبقوا إليه — إنما يتحكم فى فنهم ، ويملى عليهم إرادته ، ويوجههم الوجهة التى يراها ، وهو ماينكره أشد إنكار ، ويدعو بقوة إلى الخلاص منه .

يدعى الأستاذ بعد هذا على الأدباء أن يستعملوا أمثال الجاهلية وكناياتها، المنتزعة من بيئتها ، مثل : أخذ الشىء برمته ، وألقى حبله على غاربه ، وليس فى العير ولا فى النفير ، وعلى طرف الثمام ، وأعق من ضب . . . . . ونرى أن هذا إسراف فى الرأى شديد ، معناه قطع الصلة بين اللغة وأصلها الأول ، والقضاء على كثير من التراكيب والتعبيرات الجامعة ، تصطنع فى ألوان من المعانى شتى، دون أن يكون فى الإبقاء عليها غضاضة ، أو فى استعمالها مجانبة للصدق فى التعبير، كما يذهب إليه الأستاذ ، فكثير منها تنوسيت معانيه الأصلية ، وأصبح يستعمل عند جمهرة المتكلمين فى معانيه الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . فالذى يسمع: أخذه برمته مثلا ، يفهم منها لأول خطرة أخذه جميعه ، لا أنه يفهم معناها الأصلى أولا ، ثم معناها العرفى بعد ذلك ، مثلها فى هذا كمثل الكثير من الكلمات التى تصرف أدباء العصر الحاضر فى استعمالاتها من مثل : منطقة الامتياز ، وقطار البحر ، وتفتيش الدائرة ، وهلم جرا . فإن كان الأستاذ يحرم مايريد تحريمه لأن لبعضه مدلولات لا يسيغها الذوق الحاضر ، فقد أسلفنا أن بعض هذه المدلولات قد تنوسى أصلها ، وأصبحت ألفاظا تستعمل فى المعانى الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . والذوق الأدبى العام ، وهو الحكومة الطبيعية فى ذلك — زعيم بنفى مالا يسيغه من هذه التراكيب ، حتى أحس منها نفورا ، ولم يجدها حقيقة بالبقاء والمداولة ، فتموت بمرور الأيام ، كما مات الكثير من

من أمثالها فى شتى العصور .

فليهدأ الأستاذ بالا ، وليطمئن إلى أن الزمان فاعل فعله من الإماتة والبعث ، والتغيير والتحويل . أما الأمر باستعمال هذا ، والنهى عن استعمال ذاك ، فما لايجوز فى الأدب إذا كان جائزا فى لغة الشرائع والقوانين .

وإن كان يريد التحريم لأن مدلولات بعضها مسميات لاوجود لها فى بيئتنا ، واستعمالها مع ذلك تقليد وإلغاء للشخصية ، فإن اللغة العربية كلها ليست من وضعنا ، واستعمالنا إياها قائم على المحاكاة والتقليد . فما للأستاذ لايدعو إلى تغييرها برمتها ، واتخاذ لغة غيرها من وضعنا ؟ وإذا كنا نعلم أبناءنا أن (الشوفان) من حاصلات الزراعة فى جهة كذا ، و (الرنة) حيوان يعيش فى جهة كذا ، ونفق (سانفوتار) قائم فى جهة كذا ، ونطلب إليهم أن يتحدثوا عنها بالغيب ، ولسنا فى هذا بدعا فى خلق الله — فما للأستاذ لايريد أن نعلمهم معنى الثمام ، والضب ، والخزامى ، وموطنها بلاد العرب ، مهد العربية ، ومهبط الوحى ، ومستقر الكعبة ، ومثوى قبر الرسول ﷺ ؟ وهل يعلم الأستاذ مصريا واحدا رأى كل مافى مصر من حيوان ونبات وأزهار وثمار ؟ وما رأيه فى أدب العميان ، الذين يتحدثون عما لايبصرون ؟

ويشخص الأستاذ علاجا لهذه الحال التى يضيق بها ، وينكر الإبقاء عليها أشد الانكار — أن يذاد الشداة وتلاميذ المدارس الثانوية عن دراسة الشعر الجاهلى ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى ، اكتفاء بشعر العصر الحاضر ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى كذلك .

وهو علاج عجيب ، بل بالغ فى العجب ، معناه صد جمهور المتعلمين عن دراسة شطر كبير من الشعر العربى ؛ لأن الأدب كما لايخفى — لايدرس بعد مرحلة التعليم الثانوى إلا للقليل جدا من الطلاب . ومعناه كذلك أن يصبح الشعر العربى بعضه حلال وبعضه حرام ، وليس الحلال حلالا لمزية فيه سوى أنه ليس بجاهلى ولا يشبه الجاهلى ، وليس الحرام حراما لمنقصة فيه سوى أنه

جاهلي أو كالجاهلي ، وذلك مقياس جائر ، ماأنزل الله به من سلطان .

وماندري ماذا عسى أن يصنع الأستاذ بالذين يخالفون عن أمره ، مكابرة وعنادا ، أو تولعا بالمحظور ، أوحبا في الاطلاع ؟ أتراه يتوسل إلى أولي الأمر أن يضعوا قانونا يحرم دراسة الشعر الجاهلي على غير أهله ، ويرصدوا الجزاء للعصاة المخالفين ، والدعاة المحرضين ؟ وهل تراه يعتقد أن هذا العلاج يؤتي النتيجة التي يرتجيها ؟ كيف وهو يقرر أن الشعر العربي في جميع عصوره مطبوع بطابع الشعر الجاهلي ، متأثر به تأثرا شديدا ؟ والنهضة الأدبية الحاضرة نفسها إنما قامت على ساقين من الأدب القديم . فليس بواجد إذا شيئا من الشعر على الصورة التي يريدها ، نقيا خالصا من شوائب الشعر الجاهلي .

الحق أن ليس هناك جناية جناها الشعر الجاهلي على الأدب العربي ، لكن هناك فضلا يراد غمطه ، وأثرا محمودا يرادطمسه ، هناك دعاية ظالمة . بل نزوة غالبة ، لها على بعض كتابنا سلطان قاهر ، ولهم بها ولوع شديد . وهي التي تغريهم بالنيل من ماضينا والازراء بحاضرنا ، والإعجاب بكل أجنبي عنا ، وتصويره للناس أمثلة عليا يجب احتذاؤها ، والجد في بلوغ شأوها ، كأنا من دون الناس أمة مضيعة : ليس لها قديم تستند إليه ، ولاجديد تعتز به .

وإذا قيل لهم : بعض هذا ؛ فليس ضرره مقصورا على مقوماتنا ، ولكنه يمتد إلى النفوس ، فيوهن من الثقة بها ، ويصرف عن الاعتماد عليها ، إذا قيل لهم ذاك قالوا : جامدون . عيونهم في أقفيتهم ، ينظرون إلى ماوراءهم ، ولا يرون شيئا مما بين أيديهم . وتالله لأن يكون الناس حيال قديمهم كما يتخيل هؤلاء الدعاة خير ألف مرة من أن تكون عيونهم في أصداغهم ، لاينظرون بها إلى ماخلفهم ولا إلى ما أمامهم وإنما ينظرون إلى ماعند غيرهم ، تحرفا عن الجادة ، وانقيادا لنوازع التقليد ، وتهالكا مع الشخصية المتداعية : لاتتماسك تخاذلا وانحلالا . ولو شاء الله مافعلوه .

علي النجدي ناصف
مفتش المعارف بالأسكندرية